بهاء إيعالي

الضوء

آخر عصفور في السماء

شعر



بهاء إيعالي (الذئب)

الضوء
آخر عصفور في السماء

دلمون الجديدة للنشر والتوزيع

سبع صور فوتوغرافية منتصف الجدار

6

الصورة الأولى

مخاضٌ جديدٌ للعبور

يركلُ الترابُ جثثنا

يخرج - يقلّدنا تماماً فيما لا نقلّده

يختبئ في أجسادنا زغباً

يلمعُ كسيوفِ الجاهليّة

ولمعانه انتفاضة أوركسترا

على مؤلفها الأشعث؛

درابزون الأفق يضحك

قواربٌ تغلقُ أفواهها بماءٍ تبصقهُ المراحيض

وبسربِ ضبابٍ

علّقه الله بين أعيننا.

الماء أصابع الإله على هذه الأرض

تستفيق

ولا تجدُ ساكسفوناً

لتتضامن مع الزنوج.

كنتُ أحاول أن أبقى بين الغيمة والغيمة

لكن طرقات الناقوسِ أجبرتني على الهروب

إلى منحنيات الريح.

كريشةٍ بين كومة دبابيس

أقفزُ

يلتوي اصبعاي خوفاً من ثقوبٍ تمزّقهما

وجسدُ الحصانِ نتنٌ

بوابةٌ شرقيّةٌ ترسمُ أحجاراً بأجسادِ اخوتي.

وصلتُ إلى هنا

لكنّ جدّي الذاهبُ إلى ظلال الفحم

لم يصل بعد

والغيم يراني

يهمسُ بأذني لئلا يسمعني الجندي:

"دعهُ في حياتهِ قليلاً

هو ذاهبٌ للتخلّي عنها"؛

العبورُ موتٌ

وجدّي قنبلةٌ فوقَ لفحِ اللقائين...

الصورة الثانية

تساؤلات خلال ما مضى

١-

ربّما أشبهُ الهواء المنهك من كثرةِ الشهيقِ والزفير، لكنّني أموتُ كما يموتُ الزرادشتيون في العراء دون قبر. فهل يمكن لجثّتي المنبوذة أن تعطي من يحبونني شوقاً؟

الماءُ ملوّنٌ بالهشيم، وأنا أتجنّبُ الوقوفَ على الشاطئ.

***

٢-

ماذا لو مررت كلاعبي السيرك فوق أسلاكٍ مكهربةٍ عيار ١٠،٠٠٠ فولت، مررتُ بهدوءٍ قبل أن يبدأ نباحي المسعور لتصفّق لي الهررة؟

مغامراتنا قبضةُ شرطيٍّ تترصّدُ لما تبقّى لنا من هواءٍ في فنجان الكون.

***

٣-

هل السقوط هو الموت؟ كثيراً ما سألتُ نفسي هذا السؤال، بل ربّما لم أفكّر بهِ إلا حينما اعتقد البعضُ أنّ الحجرَ الذي ارتطمَ بطريقي ربّما هو الآخر لا أراه.

الحجرُ حجر، والأرض حجر، وكلّ شيءٍ حجر، فكيف يكون الحجرُ هو النـهايـة؟

****

الصورة الثالثة

شاعرٌ أراد الذهابَ إلى الحرب

أشواكٌ بلا رؤوسٍ

أجسادها بلونِ الهواء

أنت، هل من حكايةٍ لكَ وإياهم؟

***

شجرةٌ فارغةٌ

ليس بها سوى صغير الموتى

هل يغلقُ الله فمها؟

***

أنت

غباركَ ليس أكثر من شجرةِ ياسمين

هكذا أخبرني ضبابُ الطريق.

***

أسدلَ الغيم ستائرهُ على السماءِ وتقاسمَ العابرون جاكيتاتهم فوق رصيفٍ عارٍ، والرصيفُ رغيفٌ أسود وكلّ طفلٍ متسوّلٍ يسابق خطاه ليأكل منه.

اقترب أيّها الشاعر الفوتوغرافي والتقط صورك هنا، خارجَ حدودِ جسدِ المرأة، لكي تعرفَ كيفَ تتوقُ المعدة للحياة، لكي تعرفَ صوت الحجر كيفَ يصرخُ بوجهِ أحذية Louis Vuitton: "إن كان لكم ذاكرة تذكّروا أنّ أصلكم أنا".

الصورة الرابعة

سقطات

- نحبُّ الذين يشبهوننا، فالجسد يبحثُ عن نسخةٍ مقلّدةٍ له.

- محاولاتنا لردم التاريخ تبوء دائماً بالموت.

- على احتمالات الحياة "ليفون ميناسيان" يبكي، ويترك دموعه تخرجُ من الدودوك شجراً.

- لا نرى ما نريد إلا حين ننفق أجسادنا في الإحتراقات والقراءة الأخيرة.

- وقوفٌ؛ قعود؛ هكذا نحنُ ـ فقط.

- قفوا، وامشوا؛ قفوا، وامشوا.

- "كغرباءٍ بأيدينا الكاميرات" نعبر، يوقفنا الأطفال ليضحكوا.

– لعلّ حاجتنا لرؤية الأحلام أعظمُ من حاجتنا لتحقيقها.
ونكتفي..... ولا نكتفي...

الصورة الخامسة

العفاريت لم تذهب إلى الحرب بعد.

نجمة:

كلُّ ما يمكنني فعلهُ الآن

التقاطُ نجمةٍ

والهروبُ بها.

أشياء:

كثيرةٌ هي

تجرُّني إليها ببطء دون أن تنظر إلي

ربّما لو نظرت في وجهي

لوصلت

الحرب قبلي.

هواء:

لكثرةِ ما هربَ إلي

أصبحتُ بالوناً

وقعَ على الأرضِ منتظراً

طفلاً

يلتقطه.

لكثرةِ ما هربَ إلي

السماءُ سوداء

كبرت في دماغي

وأنا بتُّ مطراً.

زجاج:

ألوّثُ يدي

وأضعهما على الزجاج

لأثبتَ لكم

أنّني لم أعد صغيراً.

الإشتباك:

في يدي بندقيّة

دون زنادٍ ومشط

ويخبرني صديقي

انتظر

سأذهبُ وإياك إلى الإشتباك.

الجبهة:

من الذي سيقفُ بظهري

إن استدار العدو؟

كنتُ أحملُ الطفل داخلي خلفي

ليوهم العدوّ أنّني انتحاري

أو أنّهُ درعٌ بشريّ؛

الآن

كلّ ما مات فيه

كلّ ما مات فيّ

هو نفسه ـ صرتُ أكثر توحّشاً.

الحقيبة:

من غبار المعركة

نرتّقُ متاعاً

نمزّقهُ ونحنُ نفكّرُ بالعودة.

السياج:

أحاولُ أن أقفزَ فوقه

وأنا أحملُ بندقيّتي

التي تبكي شقيقاتها في الجهةِ الأخرى.

القتلةُ هنا كثر

القتلةُ هناكَ كثر

القتلى: كلُّ ما يطلقُ النار

وأنا الحي.

الهدنة:

كقايين بعدَ قتلهِ لأخيه

كالفيزوف حينَ وعدني بالسكوت الدائم

كأتيلّا باقترابهِ من روما

أحيكُ الخراب

وأجلسُ ومن يقابلني فوقهُ

ونتعانق.

الرصاص:

كلُّ شيءٍ كان ساذجاً داخلي:

أن أحصي عدد الرصاصات التي أنفقتها

وهل ستكفيني المتبقّية للجولة التالية؟!

العودة ١:

الأشياء في نهاية الحربِ مضحكة:

أن تحصي عدد جثث الرفاق وتقارن عددها بعدد جثث الذين يقابلونك لتثبت أنّ انتصارك عسكريّ وسياسي وسيكولوجي؛

أن تبحثَ عن بندقيّتك بين الأسلحة التي وضعتها في خيمٍ مهترئةٍ وأنت تتّفق مع الآخرين على شروط الهدنة، هدنة لم تردها لا أنت ولا هم، بل إنّ العفاريت التي تقاعست عن القتال أرادتها لئلا يحسمها أحد لنفسه؛ أن أجد وردةً مختبئةً خلفَ احدى المتاريسِ لئلا تصيبها رصاصات القناصّة.

أشياءٌ مضحكة، مضحكةٌ فعلاً.

العودة ٢ :

في ذاك الوقت الذي ارتفعت فيه قدمي عن عتبة المنزل خرجَ من جسدي آخر الملائكة، وها أنا كالرصاصِ أعودُ لأجدَ جداراً أرتطم فيه وأترك أثراً.

لن أسقطَ قتيلاً رغم ارتطامي لأنني لا أشبه الشهداء الذين عبروا الطريق بصمتٍ بينما كان من يراهم منهم من يصرخ، منهم من يزغرد، منهم من يزَنَّرُ بسخونة؛

لأنّني لستُ شهيداً لن تصرخَ لعودتي الأمهات، سيؤدي النهر تحيّته عليّ ـ بيده اليسرى.

الصورة السادسة

الأرض

اتجاهات الضوء تفكّكُ ظلال الأرض

لا عشب

لا هواءٌ حادّ

يحاولُ إعادة رصفها فوق بعضها

والخشبُ كالصمت

توقّفَ عليهِ جدارُ الزمن:

كوخُ الحياة هي هذه الأرض/كوخ الموتِ أيضاً.

غداً لن أعيد تأليف موسيقاي

بإيقاعات أبولو اللعين

بل سأعبثُ باتجاهات الهواء كمسمارٍ صدئٍ

لأرى كيف يغفو الإله

متخماً بجثثِ الجائعين.

ما قالتهُ الأرضُ وصدّقه الخراب:

استفق وألصق فمك بقطنةٍ مبتلّةٍ.... فقط.

الصورة السابعة

فيروز برقة

١.

فيروز من عبرت حقل الألغام في برقة

ورائحة الموت

فيروز من خلعت وجهها وقذفته نحو السماء

لتضيء برقة؛

فيروز

قفزاتُ أيلٍ في صحراء

تبلّل جسدها لفرط ما بكى الصبار

فيروز من لم تفتح عينيها لترى العصافير منذ سنواتٍ

تركت دموعها على حافة بيتها المتفحم

ومضت .

***

.٢

سائرة فوق رصيفٌ صامتٍ في كورنيش برقة

يخرجُ من يدها اليمنى هاتفٌ محمولٌ يحتفظ بما خلفتهُ الحرب لها

ولأنها لم تكن تعلم أن ما تفعله سيصبح من التاريخ أغفلت تصوير بعض أطفال تلك الركامات وهم ينظرون إلى أحلامهم قد أصبحت رماداً،

هي لم تنسَ في الحقيقة

ثمّة رصاصةٌ بطيئةٌ لم تنجح بعد في قتلها

تلك الرصاصةُ هي بيتها ـ بيتها المستلقي على الأرض بين تلك الركامات .

***

.٣

كانت فيروز تحاول أن تغنّي كما يغني أطفال حيّها

لكنها لم تكن قادرة على إخراج صوتها؛

كم عليها أن تحاول الصراخ

فليجبني الإله الذي رأى برقة تهوي كبيت ورقي واكتفى بالبكاء

فليجبني الإله الذي لم يبق غيره من يستنطق الحجر؛

في دمعته الأولى كان موت آخر حقل ليلكٍ في الحي

في دمعته الثانية امتلأ الحقل ببعض أعضاء طفلٍ سقطت القذيفة في رأسه

في دمعاته التي تكرّ تباعاً

تعلو عقيرة الليل وهو يشيّع القمر نحو منزلٍ مظلمٍ له

ولا يبقى سوى وجه فيروز

وبضعُ أغانٍ غنّتها قبل سقوط القذيفة

تبطئ رصاصة فيروز، لكنها لن توقفها .

****

٤.

فيروز في أغنيتها الأخيرة نست أنها حيّة

ونست أنّها امتدادٌ لأولئك الأطفال الذين تركوا لها أحلامهم

كنتُ أفكر

أنني لست أكثر من عقب رصاصةٍ مركونةٍ في زاوية منزلها المتفحم

وأنّ الأطفال لا زالوا غير جسورين على اقتحام الخراب

لربّما سيأتي طفلٌ يلتقطها

ويلقيها بقوّةٍ في البحر

دون أن يُنزل منه دمعةً واحدة.

طلقات

طلقات

طلقات

وتسير الجنازة..

(١)

كأنني حجرٌ أقفُ هنا، كأنّني وجهٌ آخرٌ للهواء البارد، لذا ينبغي أن أغنّي كالذئاب لئلا يعتقد القتلى أنّني رصيفٌ لخطواتهم الأخيرة.

***

(٢)

أنا آخر ظلٍّ لذاك المقاتل العجوز، وهكذا أطيلُ النظرَ في بعضِ الصورِ التذكاريّة الموضوعةِ في براويزَ قديمةٍ عشوائية؛ ربّما أعيدُ قراءةَ الظلال القديمةِ قبلَ أن يغدو القائدُ حجراً أحمق.

***

(٣)

ترى من سيذكرُ أولئك الذين امتلأت أجسادهم بالغيوم؟ وحده الهراءُ سيذكرهم.

***

(٤)

لا داعي لالتزام الصمتِ عندما ينامُ الرفاق، فهم في الحقيقة يضحكون؛ يبكون؛ ينامون؛ يشاهدون الأفلام الإباحيّة؛ يذهبون إلى قراهم في عطلة نهاية الأسبوع؛ يأكلون؛ يشربون؛ يدخّنون؛ يحتسون الويسكي؛ يمارسون العادة السرّية.....

هم يعرفون أنّنا لسنا بخير.

***

(٥)

ما كانت تعتقده نادلة المقهى أنّ صوتها جميلٌ كصياحِ ديك جدّي الشهيد، فكانت تفرط في الكلام حين أضع فنجان القهوة وأتركه هادئاً، ما أحتسيه فعلاً هو صوتها الجميل الذي لم يسمعه ديك جدي بعد. هم الموتى كثُرٌ في كلامها كعظامٍ ما تحت السور العظيم، وفنجانُ القهوةِ فنجان ماءٍ ساخنٍ ممزوجٍ بقليلٍ من الخراب.

***

(٦)

لم يكن قورش يحلم بأبّهةِ برسيبوليس

لم يكن شلمنصّر يحلمُ بأبّهة نينوى

لم يكن روميلوس يحلمُ بأبّهةِ روما

لم يكم محمّد يحلمُ بأبهة دمشق وبغداد

لم يكن عبد الرحمنِ يحلم بأبّهة قرطبة

لم يكن عبيد الله المهدي يحلمُ بأبّهة القاهرة

لم يكن عثمانُ يحلمُ بأبّهة اسطنبول

لم يكن ريتشارد يحلمُ بابهة لندن

لم يكن شارلمان يحلمُ بأبّهة باريس

لم يكن أوتو يحلمُ بأبّهة برلين

لم يكن فرديناند وايزابيلا يحلمان بأبهةِ مدريد

لم يكن جورج واشنطن يحلمُ بأبّهة نيويورك

....

كلّ ما في الأمر أنّ حلمهم كان فنجاناً من الشاي في الهواء.

(٧)

كلّ الخراب والفراغ الذي ينتجُ في هذا الكون التافه لا يعيرهُ أحدٌ اهتماماً إلا من زاويته: الكاتب حين تتبلل أوراقه؛ الحطابُ حينَ تنكسرُ فأسه؛ الحصادُ حين يضيعُ منجله؛ الشرطي حين تسرقُ عصاه؛ التاجرُ حين يخسرُ رأسماله، الحاكمُ حينَ تبردُ مؤخرته....

أما الكون فهو شغلُ أولئكَ الحمقى الذين نسوا أين الشمس.

***

(٨)

جميعنا راحلون، فما جدوى كلّ ما أفعله؟ جدواه هو أن يحتفظ الفضاء بأشكالي فقط.

***

(٩)

الأشجارُ هي أيادي الأرض، ربّما لا أفهمُ لم أجد معظمها علكةً في فم النار.

***

(١٠)

الماءُ مرآةٌ لا تنكسر، يلوّحُ بانعكاساته الخفيفة كقبعةِ آرثر ويلسلي، يشرٌّ شيئاً من صمته لتلبسه الأرض، فيما يراه الحمقى مسترخياً ينتظرُ قشّةً يتناولها فطوراً له.

***

(١١)

قلّما فكر القتلى أن يرتدوا الدم، هم يبحثون عن الأحياء ليكونوا شهوداً ضدّ الرصاص.

***

(١٢)

الغيومُ أوراقٌ يكتبها الإله ببطءٍ فقط كي يقرأ الموتى.

***

(١٣)

النجومُ أرواحٌ اختارت البقاء في السماء ولم تدنِّس نفسها بالطين البشري، لهذا هي تلمع.

***

(١٤)

لم يكن رحيلُ أميلدا سوى خيط دمٍ أكمل طريقه من هكاري نحو السماء، خيطُ دمٍ لا يراه سوى الأشقياء، الأنقياء، الأتقياء.

***

(١٥)

أحبّ الرصاص لأنّه سريع، لا يفكّرُ أبداً في البحثِ عن قبرٍ له.

***

(١٦)

في رأسي إن بحث هوارد كارتر كمن يبحثُ عن إبرةٍ في كومةِ قشّ لن يجدَ سوى الغبار، فعلامَ تنتظرُ يا صديقي. اضغط زناد قناصتك الدراغونوف وضع في قلبك ثلجاً واطلب من الآلهة ألّا تريك سوى اتجاه الهواء الذي يطاردُ الطلقة.

***

(١٧)

النشيد الذي أسمعه في مذياع جاري العجوز اعتقدتُ أنّه كان نشيد النصر، لم أكن أدرك أنّه نشيد موت الأخوة.

***

(١٨)

أنا طلقة خفيفة أوقفها الجدار ببطء. كالهواء

***

(١٩)

وحده البحر يستحق الحب، رغم ذلك لا زلت حجراً.

***

(٢٠)

الجميل في جسدي أن لا مكان فيه لانفجارٍ جديد.
فاقتربوا أيها القتلة ولا تخافوا، فالنهار آمن أيضاً.

***

(٢١)

اشتريت البارحة كتاباً فقط كي أقلب صفحاته حين يلامس فم البندقية رأسي؛ اشتريت زجاجة من الفودكا فقط كي أبتسم بسخرية؛ اشتريت الموت فقط لأنه لا يذكرني ببلاهتي.

***

(٢٢)

جلستُ على الرصيف منتظراً أن يكبر الغصن البري كتلك الشجرة المحترقة خلفي. كبر الغصن وأصبحت الشجرة رمزاً وأنا.... تذكرتني أمي حين عدت بكأس ماء.

***

(٢٣)

أرسم طفلة وأعلقها على الحائط لصقاً. ومن لحظة لأخرى أشعر أن فحوى الورقة يتحرك ويقترب مني ليصبح دمية.

***

(٢٤)

لم أعر اهتماماً للقتلى ذات يوم، أما لماذا أبكي؟ أبكي لأنني فقدت أشكال ظلالهم في رأسي.

***

(٢٥)

السماء ـ الأرض، فراغ ساحق وجبته هي تناول ذاكرة أحدنا. أنا وأنتِ.

***

(٢٦)

ينبغي البقاء منتصباً في انتظار الرصاصة التالية، الرصاصة التي ستعبر جسدي وما بينهما ٥ ملليمترات، لتكون الثالثة ثابتة وتصطدم بجسدي ـ غايتها السميّة.

***

(٢٧)

أكتب هذا الخراب لشدّة شوقي إلى النوم.

***

(٢٨)

ما أراه هو أنني كبرت، لدرجة أنّني أنظر إلى المرآة لأبحث في ذقني عن مكان لم ينبت بها الشعر بعد.

***

(٢٩)

هذه الشجرة التي دخلت أعضائها شباك مطبخ منزلي القديم لن أجلس فوقها، فقد جلست تحتها طفلاً.

***

(٣٠)

الظلال لعنة لا يراها سوى الضوء، وأنا كنت أخاف ظلّي حين كنت صغيراً، واليوم عرفت أنّه كان صورتي الآن.

***

(٣١)

أنا ضجيج ذاك الزقاق المدهونة جدرانه بالدم.

***

(٣٢)

مررتُ قرب آخر شجرة برتقال في حارتي المدمّرة؛
بكاؤها أوصل صوتي للإله.

***

(٣٣)

كل الأشياء ترغب بقتلي، لكن لا ينبغي إلا أن أفكّر بالغد
وبكلّ شيء تافه مثله.

***

(٣٤)

الطريق صورة لكعوب الأحذية.

***

(٣٥)

كل ما مضى ليس سوى بيكار معوّق وقف منتصف الدائرة.

***

(٣٦)

المياه التي تنساب عذبة من الجبل غير كافية لغسل رأسي من الشياطين.

***

(٣٧)

الهواء الذي يسرقه الأطفال بعلب البلاستيك هو أيضاً أصواتنا التي لم نجرؤ على اللفظ بها.

***

(٣٨)

الجالسون فوق الأرصفة أصدقاء موتٍ ينتظرهم.

***

(٣٩)

الضوء آخر عصفور في السماء.

***

(٤٠)

لا شيء خفيف كما هو وجودي هنا، ولا شيء خفيف أكثر مني إلا الموت وقهوة أمي آخر الليل.

***

(٤١)

الموت هو الحالة الوحيدة التي ترسمنا بصدق، لذا نحن باقون بقباحتنا المتبرجة طالما أن الحياة ترسمنا بعينيها الخاصتين.

***

(٤٢)

في فمي حذاء ضخم قمت بربط حبلٍ في أسفله كي أسحبه، أسحبه ببطء، ولما خرج انفجر من ضغط الهواء.

***

(٤٣)

فيما يقوم اللاعب الهجين بركل الكرة ليكون شيئاً ما أو لينس من يلعب لهم أنّه لا يحفظ نشيدهم الوطني، أترك الوقت يركلني لئلا يتهمني كتبة الوصايا أنّني نائم.

***

(٤٤)

ما نسميه بالرقص، ليس في الحقيقة سوى صورة متحركة لطقوسٍ سرّية لا يفهمها سوى الذي يؤديها.

***

(٤٥)

نحنُ أشلاءٌ لا تدفن، تذوب كالزبدة في مقلاة ال Tefal، تأنفنا الجوارحُ كجثّةٍ ماتت في اليوم الأخير. أماتها الخواء.

***

(٤٦)

الحربُ أطولُ من لسان العاهرة.

***

(٤٧)

الموت، الغبار، ونحن متراصفون على حافة صمت الأرصفة.

***

(٤٨)

بطبيعتهم يستفيق اللصوص عراة، فثيابهم تناسلت من اصطكاك عظامنا.

***

(٤٩)

الطريق الموحشة صوب الريح هي نفسها وجه من وجوه رحلاتنا المترنحة.

***

(٥٠)

لو أنّ الذئاب تحكم هذه المدينة لقدرت على المشي بقدمين.

***

(٥١)

حين كنت أتلوّى بخطاياي لم أكن أمشي، كنت أحاول البكاء.

***

(٥٢)

كم كنت غبيّاً يوم تركتُ جسدي هامداً كالغبار، هو في مكان وأنا في آخر، كشوكة سقطت وبقيت قبيحة.

***

(٥٣)

ما كان أجوبة لنا حين أتانا الغريب:

- ما حال أيديكم؟
- فرّقناها لتصفق
- أتبدّدون أوقاتكم؟
- نعم. ننام.
- لماذا تكثر عندكم حبال الغسيل؟
- لأننا مهرة بنشر غسيل بعضنا.

(٥٤)

ما لم يصدقه أصدقائي هو أن البامبو ينبت من أظافر ابن تيمية كما ينبت من أظافر علي الرضا، وينبت من أظافر بولس الرسول كما ينبت من أظافر ابن عباس. وهكذا....

***

(٥٥)

أياديكم خفيفة لكنّها لا تحتمل، وقصائدكم تفضحكم لهذا كفّرتم الشعراء، فضعوا الساعة بالمقلوب لربّما نستطيع نبش شيءٍ من ذاكرة البعوض والأسماك المنتنة.

لم ينته مشط الرصاص بعد، لكن سمع الرقيب الصوت فأصابه وقتله.....

فهرست





في ذاك الوقت الذي ارتفعت فيه قدمي عن عتبة المنزل خرج من جسدي آخر الملائكة، وها أنا كالرصاصِ أعودُ لأجدَ جداراً أرتطم فيه وأترك أثرا.

لن أسقط قتيلاً رغم ارتطامي لأنني لا أشبه الشهداء الذين عبروا الطريق بصمت بينما كان من يراهم منهم من يصرخ، مِنهم من يزغرد، منهم من يزَتِّر بسخونة؛

لأنني لستُ شهيدا لن تصرخَ لعودتي الأمهات.

سيؤدي النهر تحيّته عليّ - بيده اليسرى.



